الحياة الخميس
3/12/92

ضياء العزاوي يعرض اعماله في رواق الفن في طنجة

الذاكرة الجمعية في ثياب معاصرة

□ طنجة –
من الزبير بن بوشتى:

اعمال العزاوي الى «صبغ للاحتجاج ضد الوضعية التي يعيشها المجتمع، او كمدخل لهذا الموضوع المطروح...»

من الزبير بن بوشتى:

■ «لا يهم ان يكون ما شاهدته في هذا المعرض تجريداً او شخصانية، الأهم ان اعمال العزاوي من فن المعلمين الكبار. فن يمتلك قوة التعبير بالوانه وخطوطه، ذو قدرة خفية يحلق بالمشاهد مخترقاً عوالم الخيال...».

بهذه الكلمات بادرني الفنان الفرنسي، المقيم في طنجة، جان بيار فافر وهو يغادر معرض ضياء العزاوي. أعمالاً مختلفة: ألوان زيتية، طباعة، مجسمات خشبية ثلاثية الابعاد. «انها المرة الاولى التي تحتضن فيها طنجة معرضاً لضياء العزاوي»، يقول جمال السويسي مدير الرواق «غير انها ليست المرة الاولى التي يشهد المغرب معرضاً لهذا الفنان، اذ سبق ان عرض في الرباط، والدار البيضاء وأصيلة».

يضع ضياء العزاوي معرضه هذا في مرتبة خاصة جداً، لما لطنجة من موقع متميز في تاريخ الفن المعاصر، لا كمدينة اقام فيها كبار الرسامين العالميين فحسب، بل وكفضاء ملهم ساهم في التحول الاسلوبي والتقني الذي عرفته المسيرة الابداعية لعدد من الفنانين، اثناء او بعد اقامتهم فيها، ما أثر على الحركة التشكيلية العالمية بشكل واضح.

على مدى مسيرته الفنية التي تعود بدايتها الى اوائل الستينات يؤكد العزاوي انتماءه الى ذاكرة بلاد الرافدين الفنية العريقة التي تلاقحت في صلبها فنون بابل وآشور وسومر وفنون الخط والمنمنمات والزخرف المحفوظة في الكتب والمخطوطات العربية الاسلامية. ثمة طغيان للأسطورة في نتاجات العزاوي، ولعل التكوين المزدوج الذي تلقاه كدارس لعلوم الآثار من جهة وللفنون الجميلة من جهة ثانية، أهله لأن يوظف، بوعي فكري وفني، رموزاً مستلهمة من الاساطير والملاحم العراقية القديمة. ويجمع النقاد على ان تجربة العزاوي هذه كان لها تأثيرها الواضح على المجرى العام للتشكيل في العراق.

في بداية تجربته لم يتعد العزاوي محاولة صهر تقنية الالواح، التي استلهمها من الالواح الطينية البابلية القديمة، وتقنية الخط والمنمنمات التي تشربها من الكتب العربية التراثية، ثم افراغ التقنيتين في قالب مبتكر يتخذ من اللون لغة انيقة لكنها ذات دلالات وأبعاد. في هذه المرحلة انتج العزاوي سلسلة من الالواح المنحوتة من الخشب او المصنوعة من الطين التي تتقاطع عند توظيفها الحرف العربي واستعمالها الالوان. ومرد هذه التجربة يعود الى بادية دراسته الآثار، اذ كان لكتاب «كتابة على الطين» تأثير كبير على العزاوي ما أدى الى ابداعه منحوتات الالواح الطينية والخشبية المجللة بالحرف واللون، نذكر منها: «باب بغدادي قديم»، «نافذة شرقية»... وغيرهما.

عشق العزاوي للون وللحرف ونزواته التزويقية الحرفية ما فتئت تكبر وتتعاظم للتلاقح في بوتقة تجربة قادته الى البحث عما وراء الالواح القديمة ورموزها الاسطورية. وبصبر الفنان الفذ وتبصر الآثاري المطلع كان انسياقه الى اعادة صياغة هذه الرموز القديمة ومعاودة تلوينها بعد ان يسقط عليها واقع مجتمعه بقضاياه وهمومه، فاذا بها ابداعات تعبر بقوة عن جراحات وعذابات الانسان العربي. فاليد والرأس والطائر ترمز الى معتقدات غيبية في التراث الشعبي العراقي، تتحول في ضد الوضعية التي يعيشها المجتمع، او كمدخل لهذا الموضوع المطروح...» ويظل الطائر بالنسبة اليه «ذلك الكائن الذي يرمز الى الحرية والى كل اشكال الانعتاق من مناخ ظالم مظلم». يقول العزاوي، ويضيف: «لا ابدع من اجل الاثارة، ولكن من اجل فتح حوار مع المتلقي عربياً كان ام اجنبياً... لوحاتي جزء من عملية اختصار لما يحدث في المجتمع العربي. لكل مبدع جذوره السياسية وانتماءاته الثقافية ومواقفه الفنية لا يمكن ان يحيد عنها ولا يستطيع الانتاج في معزل عنها».

على هذا الاساس يبني العزاوي مواقفه الفنية، فاللون عنده مطية يحملها مواقفه من الممارسات الظالمة التي يخضع لقهرها مجتمعه، واللون الاسود، اكثر الالوان حضوراً الى جانب اللون الاحمر القاني، يعود حسب العزاوي الى كونه: «احد الالوان الاساس في الثقافة العراقية التي يحتل منها التراث المأسوي والتراجيدي الجزء الاكبر». واهتمامه في ابحاثه بالتاريخ الشعبي وبشكل خاص الملاحم الشعبية والدينية قاده الى اكتشاف علاقة اللون الاسود بالالوان الأخرى محاولاً التركيز «على عملية التضاد اللوني. «فاللون الاسود الذي يشكل في بعض الاحيان ٧٠ في المئة من مساحة اللوحة لا يتفجر الا من خلال ألوان مضادة تحتل باقي المساحات... في ثنايا هذا النوع من العلاقة بين الالوان، يصبح اللون الاسود بمثابة حدود عامة للوحة، بينما تشكل الالون الأخرى مداخل اساسية لها». ومع ان الاسود في احيان كثيرة يعبر عن التراجيديا فهو في احيان اخرى «مجرد تكوين تقني لتأسيس علاقة بصرية مع المتلقي وباقي الالوان الأخرى... فمثلاً لوحة «ما تبقى من نخلة الله» والتي يحتل منها الاسود الجزء الاكبر لها علاقة ما بحرب الخليج، اما لوحة «صباح مشرق لنخلة الله» والتي تجمع بين

ألوان زاهية فقد رسمتها بعد نهاية الحرب».

وحتى يبتعد عن مجانية التعبير بالخط العربي والمتاجرة من خلاله، استبدل العزاوي الحرف بالكلمة مستلهماً مجموعة اعماله السيريغرافية من النثر حيناً والشعر أغلب الاحيان: «ألف ليلة وليلة»، «المعلقات السبع»، «الحلاج»، «غلغامش» وأخيراً «طائر الحوم» محققاً بذلك العلاقة بين اللغة التشكيلية ونصوص نخبة مهمة من الكتّاب والشعراء: ادونيس، جان جنيه، عبدالكبير الخطيبي، بلند

الحيدري، الجواهري، خليل حاوي، الفيتوري، فدوى طوقان، والطاهر بن جلون الذي ينكب معه في الآونة الأخيرة على مشروع جديد.

صحيح ان توظيف الكلمة في اللوحة ليس بالشيء الجديد على التشكيل العراقي المعاصر، ذلك ان الفنان الراحل جواد سليم (١٩١٩ - ١٩٦١) كان من السباقين لتحقيقه بشكل مباشر في لوحته «كيد النساء» وبشكل غير مباشر في منحوتته المرمرية «البناء» التي استهلم فكرتها من بطل مسرحية ابسن: «ذلك الاسطة الذي مات من اجل فنه» غير ان ما يربط العزاوي بالكلمة، خصوصاً الشعرية منها، هو عشق خاص. يجد في الشعر مصدر الهام «لأن ثقافتي قريبة من الشعر، فاثناء دراستي للآثار كنت اميل الى قراءة الملاحم وهي طبعاً نصوص شعرية». هكذا يعبر هذا الفنان عن التصاقه بالشعر وانصهاره في عوالمه الى حد الذوبان، لكن كيف لجنس ابداعي يعتمد في تواصله مع الآخر على اللغة البصرية، ان يتحرر من حمولة الكلمة؟

يجيب العزاوي: «أحاول تحويل الشعر الى نص بصري على رغم ان نسبة كبيرة من الشعراء تعاني من الامية التشكيلية... بمعنى ان ليست لهم القدرة على القراءة البصرية على رغم مما حققوه من صور مكتوبة، فهم يخافون اللوحة، وكثير من ابرز الشعراء يخشى ان يرسم شعره، لاعتقاد معظمهم ان الرسم يسرق اللوحة».

يسيطر على اهتمام زائر معرض ضياء العزاوي، تلك المجسمات الثلاثية الابعاد المتربعة على اعمدة خشبية متوسطة فناء الرواق، تتمختر بهارمونية ألوانها «انها تجربة توصلت اليها ضمن محاولتي لرسم الشعر» يقول العزاوي، مضيفاً «اعتقد انه، على رغم الحضور القوي للشعر على مدى تاريخ الحضارة العربية، ما زال الشعر في عالمنا العربي ينتج (بقصد انتاج الدواوين واخراجها الفني) بشكل سيء جداً وما زال كتاب الشعر مجرد صفحات لا تصميم فيها، ينتج كتاب الشعر مثل ما ينتج اي كتاب آخر... وهذا ما يسيء الى الشعر». انها الرغبة في نقل الشعر الى فضاء اجمل، وهي رغبة لا شك انها تنبع من هاجس يهدف الى تحقيق ثقافة شعبية فعالة بين طبقات وشرائح المجتمع العربي. وتجربة المجسمات الثلاثية الابعاد تسهل عملية الانتقال بالشعر من الكتب الى الشارع، الى فضاءات حية ومغايرة يحقق من خلالها العزاوي فعل التكسير... تكسير طوق النخبة التي يعاني منها الشعر «وبما ان الشعر ظل رهين تجمعات النخبة فقد حاولت، يقول العزاوي، نقله الى الشارع، لتحقيق نصوص شعرية بصرية بعيداً عن الكتب والنخبة».